على هامش أول أيار

نظرة على الحركة العمالية

في الاول من ايار ، منذ خمسة وثمانين عاما فاد اتحاد العمل الامريكي اضرابا عاما من اجل يوم عمل من ثماني ساعات ، اشترك في الاضراب ٣٥٠ الف عامل ، وكان مركزه الرئيسي مدينة شيكاغو في الولايات المتحدة الامريكية .

اما نتيجة الاضراب فكانت ، بغض النظر عن التفاصيل ، سجن واعدام قادة العمل النقابي، حتى وقتل احدهم ، لينغ ، داخل زنزانته ! ثم خرج القضاء الامريكي ـ كما فعل القضاءالفرنسي في النصف الاول من القرن السادس عشر بوجه نضالات العمال المبكرة ـ باحكام اعتبرت اتحاد العمال للمطالبة بحقوقهم تآمرا غير مشروع ، وهكذا قدم القضاء الامريكي اصدق دليل على ارتباطاته بالنظام الرأسمالي القائم وعلى خدمته غير المشروطة للطبقة الرأسمالية الحاكمة ، وهذا شأن كل مؤسسة للدولة في كل نظام رأسمالي. بعد ذلك اتخذت الاممية الثانية قرارا بجعل اول ايار عيدا عالميا للعمال يعبرون فيه عن اصرارهم وعزمهم على مواصلة النضال والعمل على تحرير المجتمع من الاستغلال الرأسمالي .

هذه هي قصة عيد العمال في اول ايار ، لا « عيد العمل » كما حرفت اسمه دولتنا الكريمة جريا على عادتها في التحريف والتمييع !

وفي هذه المناسبة لا بد لنا من ان نمر مرورا سريعا على نشاط الحركة النقابية العمالية ، وتسييسها ، لنخلص الى القاء نظرة على اوضاع الطبقة العاملة عندنا وما يطلب منها ومن الاحزاب القائلة بالعمل تحت لواء ايديولوجية هذه الطبقة .

نشأة الحركة العمالية

مع دخول المجتمع البشري في مرحلة الرأسمالية ومع سيادة نظام الانتاج الرأسمالي كان طبيعيا ان تواجه الطبقة البورجوازية الحاكمة كل تكتل عمالي او اية مطالبة بحق مهما صغر بمنتهى الشراسة والوحشية . ومع كل ظروف القسوة في حياة العمال من اجور منخفضة جدا ، والتي تزداد انخفاضا ـ حتى من حيث القوة الشرائية ـ مع التعرض البديهي للازمات الاقتصادية الدورية في النظام الرأسمالي ، ومن ساعات عمل كثير ةجدا حتى ان متوسطها بلغ بين ١٢ و ١٨ ساعة يوميا . وليس للعمال فقط بل وللعاملات والاحداث ايضا الذين كثر استخدامهم لانخفاض اجورهم ، ومن سن لكل القوانين والنصوص التشريعية بما يتوافق ومصالح الطبقة الحاكمة المناقضة للمصالح العمالية حكما .

مع كل ظروف القسوة هذه ، تحركت قطاعات من الطبقة العاملة ، ولعل مدينة ليون الفرنسية شهدت اوائل محاولات التنظيم العمالي ستة ١٥٣٩ حين اضرب عمال المطابع لاربعة اشهر ، مطالبين بفداء الفصل وبحرية اوسع في عملهم ، واستمرت صداقاتهم مع ارباب العمل عدة سنوات خرجت الدولة بعدها بقانون يحرم قيام اي تحالف بين العمال ، عدا عن الاحكام القضائية القاضية بالنفي وبالغرامات المالية لدى اي تحرك عمالي .

هذا وقد شهد القرن السادس عشر انسلاخ العمال عن الجمعيات والروابط التي عرفتها القرون الوسطى والتي كانت تضم العمال وارباب العمل فانشئت جمعيات اقتصرت عضويتها على العمال وسميت « بالروابط العمالية » . كانت سرية ولها صناديق مالية للاغاثة والمعونة المتبادلة وتسعى لتشغيل العمال بشروط حسنة ، كما كانت تعقد العديد من اجتماعاتها في حراسة مسلحة ، وتعتبر النقابات الحديثة الوريث الشرعي لتلك الروابط العمالية (١) .

(١) ـ عن كتاب تاريخ الحركة العمالية والنقابية في العالم ـ عبد المنعم الغزالي الجبيلي .

واستمرت النضالات العمالية في بلدان الرأسمالية الغربية دون ان يكون للطبقة العاملة تنظيمها السياسي والنقابي القادر على تنظيم الجماهير وقيادة المعركة ضد راس المال ، كما لم تكن الطبقة العاملة مسلحة بنظرية علمية متكاملة عن المجتمع .

وتجاذبت الحركة العمالية ، مع تصاعد نضالاتها على مر السنين ، تيارات متعددة من الافكار الخيالية والمثالية حول المساواة الاجتماعية والاصلاحات الخ . والتي نادى بها الاشتراكيون الخياليون امثال سان سيمون ، فوريه ، بلانكي ، أوين .. الخ . الى انجاءات الاشتراكية العلمية فاعطت الطبقة العاملة السلاح النظري العلمي الذي خطا بها خطوات واسعة الى الامام .

ومع ذلك كان على اصحاب الفكر الاشتراكي العلمي الحقيقيين ان يخوضوا سلسلة نضالات لتحقيق الترابط بين النضال النقابي والنضال السياسي .

تسييس الحركة العمالية

هذه الموضوعة التي تكاد تكون بديهية في ايامنا، لم تكن كذلك في الماضي . فقد اضطر لينين ، بصورة خاصة ، ان يخوض صراعات حادة مع قوى الانتهازية الروسية والعالمية ـ واهمها تيار « الاقتصادية » ـ الداعية الى حصر النضال العمالي في النشاط النقابي البحت المتعلق بالمجال الاقتصادي ، والرامي الى تحسين اوضاع العمال الاقتصادية دون التطرق الى النضال السياسي، اي ان ينحصر الصراع بين العمال واصحاب الاعمال لا ان يكون صراعا بين العمال وكل النظام السياسي والاجتماعي القائم . ومن هنا طرح « الاقتصاديون » بشعارات « النضال من اجل تحسين الحالة الاقتصادية للعمال في اطار النظام القائم » و « ان زيادة كوبيك على روبل اغلى واعز من كل اشتراكية وسياسة » (٢) .

(٢) ـ لينين ـ ما العمل ؟ ص ١٩٢.

وهنا انبرى لينين في كتابه « ما العمل ؟ » سنة ١٩٠٢ ، الذي نشرته جريدة « الايسكرا » التي ساهمت في دحض آراء الاقتصاديين ، لمناهضة هذه الافكار ودحضها موضحا الفرق بين النضال النقابي البحت وبين النضال النقابي الذي يتحول الى نضال اشتراكي ـ ديمقراطي، معتبرا ان الصراع بين العمال واصحاب الاعمال واللجوء الى الاضرابات التي حصلت في العقد الاخير من القرن التاسع عشر لتحقيق بعض المطالب الاقتصادية ، كان يعني ان نضال العمال ما زال نضالا طبقيا جنينيا . ولكن عندما يصبح هذا النضال نضالا ضد كل النظام السياسي والاجتماعي القائم يكون العمال ساعتئذ قد وعوا حقيقة الصراع بينهم وبين الرأسمالية .

وقد اعطى « اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة (٣) المثل الحسي لهذا الشمول في طرح القضايا العمالية والسياسية ، حين اعد للطبع العدد الاول من جريدة « رابوتشيه ديلو » وصادرته السلطة القيصرية ، والذي دعا الى « ضرورة ربط النضال الاضرابي بالحركة الثورية ضد الحكم المطلق والى استنهاض كل من يعاني من سياسة الظلامية الرجعية الى تاييد الاشتراكية والديمقراطية » (٤) .

(٣) ـ اسسه لينين في خريف ١٨٩٥ موحدا حوالي عشرين من حلقات العمال الماركسية في بطرسبورغ . وهو اول منظمة بدات في روسيا بالجمع بين الاشتراكية وحركة العمال .

(٤) ـ لينين ـ ما العمل ؟ ص ١٨٧

وفي مجال التنظيم رفض « الاقتصاديون » ضرورة وجود حزب عمالي وانكروا دور حزب الطبقة العاملة القيادي معتبرين ان مهمة الحزب لا تعدو تأمل سير الحركة العفوي وتسجيل الاحداث .

وفي هذا الصدد قال ستالين ، في كتابه « اسس اللينينية » : ان نظرية السجود امام العفوية تعارض معارضة تامة في اعطاء الحركة العفوية صفة واعية ومنظمة ، انها تعارض في ان يسير الحزب على راس الطبقة العاملة وفي ان يرفع الجماهير الى مستوى الوعي ، وفي ان يقود الحزب الحركة وراءه . انها عقلية « السير في المؤخرة » وهي الاساس المنطقي لكل انتهازية ».

وزعم « الاقتصاديون » انه يمكن للايديولوجية الاشتراكية ان تنبثق من الحركة العفوية ،منكرين ضرورة قيام الحزب الماركسي بث الادراك الاشتراكي في الحركة العمالية ، وبذلك مهدوا الطريق امام الايديولوجية البورجوازية لتسيطر على الحركة العمالية ، لانه كما قال لينين :

« المسالة مطروحة بالشكل التالي : اما ايديولوجية بورجوازية واما ايديولوجية اشتراكية وليس وسط بينهما لان البشرية لم تصنع ايديولوجية ثالثة ، اضف الى ذلك انه في مجتمع تمزقه التناقضات الطبقية لا يمكن ان توجد اية ايديولوجية خارج الطبقات او فوق الطبقات ، ولذلك فان كل انتقاص من الايديولوجية الاشتراكية وكل ابتعاد عنها هو في حد ذاته بمثابة تمكين للايديولوجية البورجوازية وتوطيد لها » (٥) .

(٥) ـ لينين ـ ما العمل ؟ ص ١٩٦

وشدد « الاقتصاديون » على حياد النقابات من الاحزاب والمنظمات السياسية . وفي معرض رده على ذلك يقول لينين في مقاله « حياد النقابات » : « ان القضية ليست على الاطلاق كيف يتشكل الحزب ، واي نضال واي انقسامات تحدث في العملية . انها قضية ان الحزب الاشتراكي والنقابات موجودة بالفعل في كل بلد راسمالي ، ومهمتنا تحديد العلاقات الاساسية بينها . اذ المصالح الطبقية للبورجوازية تدفعها بالضرورة الى محاولة حصر النقابات في حدود نشاط ضيق وصغير في اطار النظام الاجتماعي القائم لابعادهم عن اي ارتباط بالاشتراكية ، ونظرية الحياد هي الغطاء الايديولوجي لهذه المحاولات البورجوازية » .

ووفقا لافكار لينين اتخذت اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي قرارا خاصا بالنقابات سنة ١٩٠٨ وجاء فيه : « انه على اعضاء الحزب ان يؤلفوا جماعات حزبية داخل المنظمات النقابية وان يعملوا داخلها بتوجيه من المراكز الحزبية المحلية . واذا ادى القمع البوليسي الى استحالة تنظيم نقابات او اعمال تنظيم النقابات التي حلت فان اللجنة المركزية تقترح ان تنظم نواة النقابات والنقابات سرية (٦)

(٦) ـ مجلة الطليعة عدد نيسان ١٩٧٠ ـ لينين والنقابات

وهكذا وبجهود لينين الجبارة ، وبمساعدة « الايسكرا » سحقت « الاقتصادية » وخلقت الاسس النظرية لقيام حركة ثورية حقا للطبقة العاملة الروسية (٧) ومعها تكرست الوحدة

(٧) ـ اسس اللينينية

بين اشكال النضال العمالي النقابية والسياسية الشاملة .

نظرة على الحركة العمالية العربية

يختلف واقع الحركة العمالية باختلاف طبيعة نظام الحكم في كل قطر من اقطار الوطن العربي .

فالحركة العمالية اما غير موجودة او موجودة شكلا او موجودة بقيادة اليمين ، هذا في النقابات الرجعية .

اما في انظمة حكم البورجوازية الصغيرة فاما غير موجودة او موجودة شكلا وتتميز وجودها بالتبعية للتنظيم السياسي القائم وبالتالي تعتبر غير ذات فعالية .

اما وضع الحركة العمالية في لبنان فيتميز اولا بتعدد اطره التنظيمية بحيث عمدت الدولة الى ايجاد اكثر من نقابة في المهنة الواحدة بالتالي بذور التشتت والخلافات وبالتالي الضعف داخل في صفوف الطبقة العاملة .

هذا عدا عن لجوئها الى اساليب مختلفة تتراوح بين الترغيب والترهيب بالنسبة للقيادات العمالية لاحتوائها والسيطرة عليها لتفريغ اي تحرك عمالي تقوم به جماهير العمال والامثلة على هذا اكثر من ان تعد وتحصى .

ولا شك ان جذور هذه الحالة المشتتة تعود الى عدة عوامل بعضها :

ـ اقحام الطائفية في النضال العمالي .
ـ محاولة السلطة وازلامها فصل السير عن النضال النقابي (« اقتصادية » جديدة)
ـ ميوعة القيادات وعدم التزامها الفعلي بقضية العمال .
ـ تعدد النقابات في المهنة الواحدة .
ـ بقاء بعض القطاعات العمالية دون نقابات (العمال الزراعيون ...)
ـ تقصير الاحزاب اليسارية القائلة بايديولوجية الطبقة العاملة عن التغلغل الى كافة القطاعات العمالية وقيادة تحركها .

والمطلوب ، بالاضافة الى نقطة التخطي السابقة الذكر العمل على توحيد الحركة النقابية على ضوء برنامج واحد يسعى الجميع لتحقيقه اسهاما منهم في دورهم المحتوم في عملية التغيير وهذا لن يحصل الا اذا قامت القوى التقدمية بانشاء جبهتها الموحدة على الصعيد السياسي العام مولية وجهها شطر القطاع العمالي لتنظيمه وتثقيفه بالفكر الاشتراكي العلمي قيادته المناضلة الصلبة بدلا من ان يتركز « الماركسيين » الحزبي بين عناصر المثقفين ابناء البورجوازية الصغيرة .